

دروس التاريخ
ويل ، آريل ديورانت
عرض وتلخيص
أنيس منصور

اهداءات ٢٠٠٢

اللواء/ محمد ضياء الدين زهدي

القاهرة

# " دروس التاريخ "

---

تأليف

ويل وأريل ديورانت

عرض وتلخيص

أنيس منصور

# الفصل الاول

## " يصنعه العظماء ، ويكتبه الاذكياء ... التاريخ

" اصبرى ياأعز الناس ..
" وقفى فى صلابة اذا ماسقطت أنا من التعب ..
" اصبرى حتى أعرف ان انفاسى المتناثرة لن تضيع ، وانما سوف تتحد من جديد فى لحن جميل هو انت ..

" اصبرى حتى أقول لقلبى انك سوف تبدأين عندما انتهى أنا ليقصر الطريق تحت قدميك " .

وكان ذلك أول شرط من شروط العقد العظيم بين الكاتب الامريكى الكبير ول ديورانت وبين زوجته أريل ، فقد أهدى اليها أول كتاب رائع كتبه وأسمه " قصة الفلسفة " الذى باع ١٢ مليون نسخة .. وطلب اليها أن تصبر عليه حتى يفرغ من كتابة تاريخ الانسانية كلها . ، ووعدها بأن يستأنف الاثنان معا حياة هانئة هادية حكيمة بعد ذلك .

واتفقنا على الصبر أربعين سنة . وفى هذه السنوات قرأ ثمانين ألف كتاب وسجل ملاحظاته على احداث التاريخ فى ٥ ملايين ورقة صغيرة . وفى هذه السنوات أصدر عشرة

كتب ورواية طويلة .. ولكن أعظم أعماله على الاطلاق كتابه المعروف " قصة الحضارة " في ... أجزاء تنتهي بسنة الثورة الفرنسية ١٧٨٩ ، وقد ترجم ... محمد بدران نصف هذا الكتاب في ٢٢ جزءاً ، كما ترجم الدكتور فؤاد الاهواني لهذا الكاتب العظيم كتابا في مجلدين بعنوان "مباهج للفلسفة " .. وقد صدر في اللغة العربية كتاب جميل العبارة في ثلاثة اجزاء اسمه " قصة الفلسفة اليونانية .. وقصة الفلسفة الحديثة " من تأليف الدكتورين زكي نجيب محمود واحمد أمين ، والكتاب ترجمه حرفيه لكتاب " ديورانت .. ( ومن الانصاف أن أقول أن الكتاب من أوله لآخره بقلم زكي نجيب محمود — وحده )

وبعد أن صدر الجزء العاشر من " قصة الحضارة " أعلن الكاتب الكبير أن رسالته قد كملت ، وأنه ينفذ العقد الذي أبرمه مع زوجته : أن يستأنف الحياة من جديد ، وقد تحقق له المجد والمال ، فقد جمع أكثر من ثلاثة ملايين دولار ، لولا أن ابنته أثيل التي عاونته كثيرا — هي ايضا سألته هذا السؤال : ما معنى ما حدث ؟ ما معنى التاريخ ؟ ما قيمة دراسة التاريخ ؟ ما الذي يستفيد رجل الشارع اذا قرأ تاريخ بلاده أو تاريخ الحضارة الانسانية كلها ؟

وهنا التفت الكاتب الكبير الى زوجته ، ودون أن يكون بينهما كلام كثير ، جلس الاثنان ، وتقاربت رؤوسهما وامتدت ايديهما الى الورق ، وتأخر شهر العسل ستة شهور أخرى ، وصدر لهما أخيرا كتاب موجز بعنوان " دروس التاريخ " أرجو أن أفرغ من ترجمته فى وقت قريب ، وهذا الكتاب هو أروع وأعمق وأبسط الكتب التى صدرت فى هذا القرن .

ويتساءل ديورانت فى أول كتابه عن معنى التاريخ فيقول :

هل التاريخ مجرد سرد لانحلال ونهوض الشعوب والافكار .. هل هو مجرد قصص حزينة عن ملك قام وملك نام .. هل الماضى مجرد تجارب لمسرحيات سوف يعاد عرضها فى المستقبل .. هل التاريخ نصفه تخمين والنصف الآخر حقد .. هل التاريخ سلسلة من الاعمال المنية لاضرورة لها .. هل التعليم هو الذى يصنع التاريخ ، والقوى هو الذى يكتبه .. هل واجبنا أمام التاريخ ان نعيد كتابته ..

على كل حال مهما أطلنا النظر الى أحداث التاريخ فنحن نراه من زاوية واحدة . ولا يمكن أن نرى التاريخ من كل زواياه والذى يدعى ذلك مصاب بخداع النظر . وما دمنا نرى التاريخ من زاوية واحدة ، فلا يمكن أن نكون صادقين فلا احد

يعرف كل تاريخ الانسانية ، ومن المؤكد أن حضارات أخرى ظهرت واختفت قبل الحضارة السومرية والحضارة الفرعونية ..

ونحن فقط قد بدأنا نحفر طرق التاريخ ..

والمهم أن نبدأ بالمعرفة ، وكل معرفة تاريخية هي معرفة متحيزة ، ويجب أن نقنع بما عثرنا عليه ، وأن نستريح الى أن كل ما اهتدينا اليه هو مجرد احتمالات .

والتاريخ ، كالسياسة والعلوم ، يخضع لقانون النسبية ، فكل شيء نسبي ، وكل قاعدة أو قانون يجب أن يكون موضع شك .

والتاريخ يسخر من كل محاولة لارغامه على المشي في طريق معين .. أو أطار معين .. بالطول أو بالعرض .. فالتاريخ خطوط متقاطعة ومتكسرة .

وهذا المعنى يجعلنا نحن حتى الاوهام التاريخية عند غيرنا من الناس .. نحن وهم لانعرف الا جانبا من الحقيقة التاريخية ..

وما دام الانسان هو لحظة من لحظات الزمن ، وما دام ضيفا عابرا على هذه الارض ، بذره في تربة ، وغصنا في شجرة وجسما وعضوا في أسرة ، مؤمنا أو ملحدا ومواطنا في دولة وجنديا في جيش لذلك يجب أن نتساءل عن علاقة التاريخ :

بالجغرافيا وعلم الحياة وعلم الاجناس وعلم النفس والاخلاق والدين والاقتصاد والسياسة والحرب — فما الذى يقوله التاريخ عن طبيعة الانسان أن الاحمق فقط هو الذى يتصور أنه يستطيع أن يقول ذلك فى كتاب صغير .. ولكن يجب أن نحاول ! .

## * ما علاقة التاريخ بهذه الارض ؟

يمكن ان يقال أن التاريخ سجل لحوادث الماضى، وتاريخ الانسان هو لحظة خاطفة على الارض ، وفى أية لحظة من الممكن أن يقترب أحد النجوم أو الكواكب من الارض فيهز كيانها ويلخبط مسارنا ويخنق أهلها بالنار والدخان ، ومن الممكن أن ينفصل جزء من الشمس — كما حدث فى الماضى — ويصطدم بالارض فيقضى على الارض وعلى عذاب سكان الارض .

وحتى اذا مات الانسان على الارض فسوف يبقى أنبل المخلوقات جميعا ، لانه وحده الذى يعلم أنه مات ، أما القوى التى حطمته فلا تعلم ذلك !

وفى كل يوم يزحف البحر على البر والبر على البحر وتتحطم الجبال ، وتغيز الانهار مجاريها والوديان تصبح صحارى ، والصحارى تصبح وديان .. فسطح الارض سائل متحرك .

والانسان يمشي على هذا السطح كما مشى القديس بطرس على الماء ليلتقى بالمسيح !.

والمناخ لم يعد بوجهنا ، انه يحدد نشاطنا فقط ، وعبقرية الانسان هى التى تتغلب على مشاكل الارض . فهو قادر على رى الصحارى ، وتكييف البيوت التى يسكنها ، وفى استطاعته أن يسوى الجبال وأن يزرع التلال بالعنب ، وأن يبنى مدينة عائمة تعبر المحيط ، وأن يبنى عصفورا طائرا يعبر القارات .. ولكن عاصفة واحدة قادرة على أن تحطم العصفور ، وجبلا من الجليد قادر على أن يشق المدينة العائمة ..

ولو بخلت السماء بمطرها لاختفت الحضارة تحت الرمال .. كما فى آسيا الوسطى !

ولو سقط المطر بغزارة لتحولت الحضارة الى غابات واحراش ، كما فى أمريكا الوسطى !.

ولو ارتفعت درجة الحرارة عشرين درجة لتحولنا جميعا الى وحوش ، وفى المناطق الاستوائية من العالم يعيش ألف مليون شخص يتكاثرون كالنحل ، وهذه الحرارة التى تحطم الاعصاب قد تجعل حياتهم معارك دامية .

ان اجيالا كثيرة قد تطورت فى سيادتها لهذه الارض ، ولكنها

فى النهاية سوف تدفن فى هذه الارض ، وتكون احـــدى حفرياتها !

ويمكن أن يقال أن الجغرافيا هى أم التاريخ : أنهارها وبحيراتها وواحاتها ومحيطاتها تستدرج السكان الى الشواطئ. لان من الماء كل شئ حى الانسان والحيوانات والنباتات والمدن والماء طريق رخيص للمواصلات والتجارة ، ولذلـــك قيل أن مصر هبة النيل ، وحضارة العراق نبتت بين نهـرى الدجلة والفرات ، وحضارة الهند قامت على ضفاف نهـرى الجانج وابراهمابترا .. وقامت حضارة الصين على انهـارهـا الكبرى .. وايطاليا عاشت على وديان أنهارها التيبر والارنـو والبو .. والنمسا على الدانوب .. والمانيا على الالب والرايـن وفرنسا على الرون واللوار والسين .. وعندما زاد عدد سكان الاغريق اقاموا مستعمراتهم على البحر الابيض ، كما تعيـش الضفادع على المستنقعات ، كما وصفها الفيلسوف افلاطـون .

وقد ظل البحر الابيض عرشا للرجل الابيض أكثر من ألـف سنة ـ أى منذ معركة سرميس ٤٨٠ قبل الميلاد حتى معركة الاسطول الاسبانى سنة ١٥٨٨ ، ولكن بعد سنة ١٤٩٢ ـ ورحلات كولمبوس الى أمريكا وفاسكو داجاما حول أفريقيا لم يعد

البحر الابيض هو مقياس شجاعة الرجال وبطولتهم ولم تعد المدن الايطالية مثل البندقية هى مركز النشاط التجارى والملاحى كما أن عصر النهضة الاوربية دخل فى مرحلة الافول . واتجهت النهضة الى شعوب الاطلنطى ، وبدأ الاتجاه الى غرب الاطلنطى ، فهل تستمر هذه الدول فى تصديرها للاساليب الصناعية من أوروبا وامريكا الى الصين .. وهل تؤدى هذه المعنوية فى الدول الشرقية الى تقويض الحضارة الغربية ؟

ولاشك ان تطور الطيران سيغير خريطة الحضارة ، ولن يهتم أحد بعد ذلك بالانهار كوسائل للمواصلات . والموانى ستترك أهميتها للمطارات ، وستفقد الشواطىء البريطانية والفرنسية أهميتها ، وقد كانت بلاد مثل روسيا والصين والبرازيل ضحية لاراضيها الشاسعة ، ولذلك سوف تعتمد على الطيران ، وهذه هى أكبر ثورة فى التاريخ .

وبذلك تفقد العناصر الجغرافية أهميتها وخطورتها أمام التطور التكنولوجى ..

لان الانسان ، وليست الارض ، هو الذى يصنع الحضارة

■ ما علاقة التاريخ بعلم الحياة ؟ ..

التاريخ جزء من علم الحياة ، فحياة الانسان جزء من تطور الكائنات الحية على الارض أو في البحر . ويكفي أن تذهب الى احدى الغابات في احد أيام الصيف لتلاحظ كم عدد الحشرات والفراشات والطيور والزواحف التي تثيرها عندما تدخل هذه الغابات فتجري فيما بين الاوراق والاعشاب ، ان أول ما يخطر على البال هو ان الانسان عضو في أقلية ضئيلة جدا على هذه الارض .. وهذا يجعلنا نشعر أن الانسان يغير من حياة هذه الاعداد الهائلة من الكائنات الاخرى .

وقوانين علم الحياة . هي أول ما نتعلمه من دروس التاريخ .. فنحن أيضا نخضع لعمليات الصراع من أجل البقاء .

وأول القوانين هو أن البقاء للاصلح

واذا حاول واحد أن يهرب من الصراع ، فلأن المجتمع قد وفر عليه هذا المجهود ولان المجتمع يحمي الفرد .. ولكن المجتمع نفسه يجب أن يواجه

الصراع لكى يبقى هو ايضا • فالحياة منافسة •• والمنافسة ليست هى حياة التجارة ، ولكنها تجارة الحياة !! والانسان يصبح هادئا عندما يجد الطعام ، عنيفا عندما لايجده ، والحيوانات تأكل بعضها البعض بلا ندم والمتحضرون يستهلكون بعضهم البعض • ونحن نتطور عن طريق التعاون كأفراد فى الاسرة والنادى والجيش والامة ، لكى ندعم جماعتنا فى منافستها لجماعة أخرى ، والجماعات المتنافسة لها صفات الافراد • والدول لانها مكونة من جماعات ، فهى مثلنا أيضا • اذ تكتسب طبائعنا بصورة ضخمة • ونحن مقاتلون محاربون ، لان أجدادنا من ألوف السنين كانوا يقاتلون ليعيشوا وكان يحشرون بطونهم بالطعام ، فقد كانوا يخافون ألا يجدوا الطعام ••

والحرب هى أسلوب الشعب ليأكل • وهى تدعم التعاون لانها أعلى درجة من درجات التعاون •• ومالم تصبح دولنا عضوا فى جماعة أكبر وأقوى ، فانها تضعف ولاتقوى على الاستمرار والبقاء •

والقانون الثانى الذى يتعلمه التاريخ من علم الحياة هو : أن الحياة اختيار ••

ففى الصراع من أجل الطعام أو التكاثر تنجح بعض الكائنات أو تفشل .. وفى الصراع نجد أن بعض الافراد مزودون بأسلحة البقاء أفضل من غيرهم .. وما دامت الطبيعة لم تقرأ كل ما جاء فى "وثيقة الاستقلال الامريكية" أو ماجاء فى "مبادئ الثورة الفرنسية من حقوق الانسان" . فنحن جميعا قد ولدنا عبيدا غير متساوين : خاضعين للوراثة الجسمية والنفسية ولعادات وتقاليد المجتمع ، وللصحة والمرض .

والطبيعة تحب التنويع والكثرة لكى تختار ما يستحق البقاء . وهى لاتختار الا الاصلح ..

واختلاف الناس طبيعى .. حتى التوائم يختلفون فى مئات الصفات . ولاتوجد ورقتان متشابهتان فى شجرة واحدة .

وعدم المساواة بين الناس طبيعى وهذا الخلاف يزداد كلما تطورت الحضارة نفسها . وعدم التساوى الوراثى يؤدى الى اختلاف آخر وكل اختراع أو ابداع يقوم

به — عادة — فرد غيرعادى • وهذا يجعل القوى أقــــوى • والضعيف أضعف ••

والتطور الاقتصادى يزيد الوراثة تخصصا وتنوعا • ويجعـــل أهمية الناس مختلفة • ففى أى مجتمع تجد أن ٣٠ ٪ من أفــراده لهم قدرات الباقين •

والطبيعة تسخر من حديث عن الحرية والمساواة • لان الحريه والمساواة عدوان الى الابد • وعندما تنمو احداهما تنكمش الاخرى • اترك الناس احرارا وانت تجد أن عدم المساواة قد اتسع بين الناس • ا. تلفوا وتنوعوا كما حدث فى انجلترا فى القرن ١٩ • ولكـــن توقف عدم التساوى بين الناس • يجب أن نضحى بالحرية كما حدث فى روسيا بعــد ثورة سنة ١٩١٧ ••

و الانسان دون المتوسط اقتصاديا هو الذى يطلـــب المساواة • والذيـــن لديهم قدرات أكبر يطلبون حريات أكـــثر ••

والقانون الثالث : هو ان الحياة يجب أن تنمو •• فالطبيعة لاتهتم كثيرا بالكائنات التى لاتتكاثر • فهى تهتم بالجنــس كله أكثر من اهتمامها بالافراد •• ولا فارق عندها بين البدائيين

والمتحضرين . وهى لا يهمها أن نقول أن زيادة النسل تدل على التخلف . وتحديد النسل يدل على التقدم ولا يهمها أن نقول أن الشعوب ذات النسل الاقل سوف تعاقبها الشعوب ذات النسل الاكثر .. فالفرنسيون القدماء قد تغلبوا على الالمان بمساعدة قوات الرومان فى ايام قيصر .. وفى أيامنا هذه تغلبوا عليهم بمساعدة الانجليز والامريكان .

وعندما سقطت روما خرج الفرنسيون القدامى من المانيا واقاموا دولتهم . واذا سقطت بريطانيا وامريكا فان فرنسا التى لم يتغير عدد سكانها منذ القرن ١٩ سوف تتغلب مرة أخرى .

واذا زاد عدد الناس لدرجة انهم لا يجدون طعاما . فعند الطبيعة ثلاثة أساليب لمواجهة هذه الزيادة : المجاعة والاوبئة والحروب !

وكان الاب مالثوس يقول أن وفرة الطعام هى التى جعلت الفقير يتزوج فى سن مبكرة . ولذلك

طالب بتحديد النسل .

ولكن يبدو أن نظرية مالثوس هذه ليست دقيقة . فقد لاحظنا أن تطور الزراعة واساليب منع الحمل في القرن ١٩ في انجلترا وامريكا والمانيا وفرنسا قد ادت الى زيادة الطعام وزيادة النسل . كما أن ارتفاع مستوى المعيشة قد صاحبه انخفاض سن الزواج وصغر حجم الاسرة . فزيادة المستهلكين أدت الى زيادة المنتجين .

ويرد على نظرية مالثوس هذه أن الولايات المتحدة وكندا تصدران الملايين من جوالات القمح الى الدول الاخرى ..

ولو طبقنا الاساليب الزراعية الحديثة على كل شبر في العالم لاستطاعت الارض أن تطعم اضعاف سكانها ..

ومن الغريب أن يوليوس قيصر ( ٥٩ ق.م ) كان يعطى للرومان مكافآت على عدد الاطفال . وكان يحرم على المرأة التي لا تلد أن تستخدم الحلى والزينة .

وتزايد السكان كالحروب تماما تحدد مصير الاديان ..
فالمسلمون هزموا في معركة تور سنة ٧٣٢ وبذلك انحسرت

قواتهم عن فرنسا وأسبانيا .. ولم يوضح القـــرآن مكان التوراة .. أنها مسألة عدد .. كما أن تزايـد عدد الكاثوليك فى فرنسا وسويسرا والمانيا قد أدى الى سيطرتهم على البروتستانت .

انها سخرية التاريـــخ

ماعلاقة التاريخ بالاقتصـــــــاد ؟

يقول كارل ماركس أن التاريخ هو الاقتصاد عندمـا ينشط — أى أن التنافس بين الافراد والجماعات والطبقات والدول من أجل الطعام والوقود والمواد الاولية والقـــوة الاقتصادية . والاشكال السياسية والهيئات الدينيـــة والابداع الثقافى كلها ذات جذور اقتصادية .

والثورة الصناعية قد أتت لنا بالديموقراطيـــة وحرية المرأة وتحديد النسل والاشتراكية وضعف الدين . والتحلل الاخلاقى واستقلال الادب عن نفوذ الارستقراط وظهور الرواية الواقعية بدلا من الرواية الرومانســــيه ثم التفسير الاقتصادى للتاريخ ..

والتفسير الاقتصادى للتاريخ ينير التاريـــخ ويوضحه ..

فكنوز كليوبطره هى التى انعشت ايطاليا المفلسة .. وجعلتها قادرة على أن تمنح الشاعر فرجيل معاشا سنويا والشاعر هوراس — مزرعة واسعة ..

والحروب الصليبية التى تشبه حروب روما والفرس ، كانت محاولة من الغرب لاحتلال طرق التجارة الى الشرق .. ولا شك أن اكتشاف أمريكا كان نتيجة لفشل الحروب الصليبية .

كما أن بنوك أسرة مديتشى الايطالية هى التى انعشت عصر النهضـــة .

والثورة الفرنسية لايمكن أن تكون قد اشتعلت بسبـــب العبارات الساخرة للفيلسوف " فولتير " ولا بسبب رقة احساس " روسو " ولكن لان الطبقة المتوسطة فى فرنسا قد سيطرت اقتصاديا على البلاد وتريد أن تكون لها حرية قانونية للتوسع فى مشاريعهـــا التجارية ، وان تكون لها السيطرة السياسية أيضا .

وكارل ماركس لم يقل أن كل تصرفات الانسان كانت بواعثهـــا اقتصا دية بحتة .. فلا يمكن أن يكون غرام القديس ابيلار للفتاة هلويزة لاسباب اقتصادية .. ولا رسالة بوذا ولا أحلام الشاعـــر

كهفى •• ولكن كارل ماركس يرى أن الاسباب غير الاقتصادية تافهة •

والتاريخ يقول لنا : من يتحكم في انسان فهو يتحكم في شيء آخر •• ومن يتحكم في المال يتحكم في كل شيء !

فأصحاب العقول يديرون كل شيء ويوجهون الزراعة والصناعة والتجارة •• ويغامرون فيكسبوا أكثر ليصعدوا قمة الهرم الاقتصادى والسياسى بعد ذلك !

والامثلة على ذلك كثيرة في التاريخ أسرة مديتشى في مدينة فلورنسة •• وأسرة فوجرز في مدينة أوجسبرج •• وأسرة روتشيلد في باريس •• وأسرة مورجان في نيويورك •• كل هؤلاء قد جلسوا في مقاعد السلطة يديرون الحروب ( الباردات ) ويشعلون الثورات أيضا •

وعرف هؤلاء الاثرياء سر ارتفاع وانخفاض النقد • وعرفوا ان الحرب هى تضخم في النقد •• وعرفوا ايضا أن الفلاسفة والحكماء لا يفكرون في المال كثيرا • بل انه اخر مايخطر

لهم على بال .. وأول مايخطر لهؤلاء على بال )

والتاريخ يقول لنا ان كل نظام اقتصادى يجب أن يعتمد على شكل من اشكال الحوافز الفردية .. على الربح .. فالربح يثير الفرد والجماعة الى مضاعفة الانتاج ..

وأن كانت هناك حوافز بديلة مثل السخرة والقهر البوليسى والحماس الدينى . ولكنها جميعا أثبتت انها لاتؤدى الى مضاعفة الانتاج . كما انها غالية الثمن .

والانسان يقاس عموما بقدرته على الانتاج ، الا فى الحروب فهو يقاس بقدرته على التدمير .

وما دامت القدرة العملية تختلف من فرد الى فرد ، فأن هذه القدرة ، فى كل المجتمعات تتركز فى فئة قليلة من الناس . وتتركز الثروات كذلك فى أيد قليلة ، مادامت العقول القادرة قليلة ونسبة التركيز تختلف باختلاف الحرية الاقتصادية التى تسمح بها مبادىء الاخلاق والقانون والاستعباد ، يقضى على التركيز المالى بعض الوقت ولكن الديموقراطية تعطى حرية اكثر بتركيز الثروة )

وعدم التوازن بين الذين يملكون الثروة ، وبين الذين لا يملكونها

هو الذي أدى الى ضرورة اعادة الثروات بالقوة . أ و بقوة القانون . او بالثورة .

وفي أثينا سنة ٥٩٤ قبل الميلاد ساءت حال الناس وزاد عدد الفقراء . وكانت الحكومة في أيدى الاغنياء يدفع الفقر الناس الى الهمس والكلام والصراخ والتهديد . واخذ الاغنياء يدافعون عن انفسهم بالقوة . وفي هذه الظروف انتخب الناس سولون وهو رجل أعمال أرستقراطي . وأول مافعله سولون هو تخفيض العملة وبذلك خفف الديون على الناس وانقص الديون الشخصية والغى عقوبة الحبس سدادا للديون . والغى الجمارك المستحقة وجعل الجمارك تصاعدية بحيث يدفع الغنى عشرة أمثال مـا يدفعه الفقير . وقرر معاشا سنويا لابناء الشهداء وجعلهم يتعلمون مجانا على حساب الدولة .

واحتج الاغنياء على سولون واعتبروها نوعا من المصادرة لاموالهم ولم يعرف الناس انه انقذ البلاد من ثورة محققة . الا بعد ذلك بوقت طويل ..

ومن بعد سولون اقترح جراكوس اعادة توزيع الاراضي وجعل الحد الاقصى للملكية الزراعية ٣٣٣ فدانا للشخص الواحد

ثم أعطى الارض للفلاحين . ورفض مجلس الشيوخ هذا المشـــروع رفضا باتا . واتجه جراكوس الى الشعب يقول له : يامـــن تحاربون وتموتون من أجل أن يبقى الاثرياء أثرياء ، يامن تموتـون ليبقى غيركم فى ترف ونعيم بينما أنتم لاتملكون شيئـا !

ولكن المشروع مات فى اللحظة التى ولد فيها !

.. ثم خاض معركة انتخابية وفى انتهائها ذبحه أحد المواطنين وكان ذلك سنة ١٣٣ قبل الميلاد . وقد حاول اخوه أن يستمر فى الدعوة الى أعادة توزيع الارض ولكنه فشل . فطلب الى خادمه أن يقتله . فقتله الخادم وقتل نفسه أيضا !

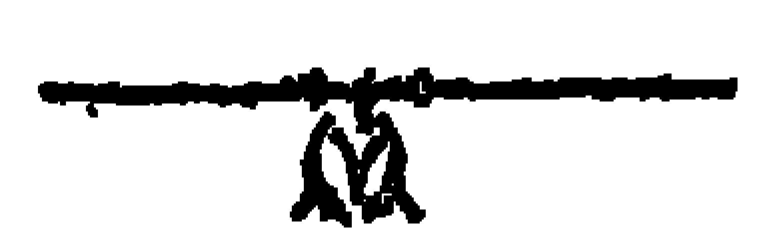
وأصدر مجلس الشيوخ حكمه بالاعدام على ثلاثة آلاف من أعوان الاخوين !

وحاول بعدهما كثيرون من كل العصور ولكنهم فشلوا ..

وبعد انهيار الامبراطورية الرومانية سنة ٤٧٦ ميلاديـــة جاءت قرون من الفقر .. وتوزيع بطىء للثروات وتركيزها فـــى الكنيسة الكاثوليكية . فليس الاصلاح الدينى فى المانيا وانجلسترا الا محاولة لتحقيق العدالة المادية للكنيسة .. والثورة الفرنسيه حاولت توزيع الثروات بالدم فى المدن ، وبالارهاب فى الريف .

وقد حاولت حكومة الولايات المتحدة فيما بين ١٩٣٣ و ١٩٥٢ ومابين ١٩٦٠ و ١٩٦٥ أن تعيد توزيع الثروات مستخدمة حكمة سولون الهادئة .. وربما كان سبب ذلك أن أحدا قد قرأ التاريخ !

ومعنى ذلك أن تركيز الثروة طبيعى ولا مفر منه .. فى أيدى الاقلية أو فى اجهزة الدولة وهذا يتم برفق أو بعنف . والتاريخ الاقتصادى ليس الا دقات قلب كائن اجتماعى ، نوعا من القبض والبسط وارغاما للثروة على أن تجرى من جديد بين جيوب أكبر عدد ممكن من الناس !



## الفصل الثانـــى

## ان يكون للناس ديـــن : هذه ضرورة !

" من معانى الحضارة الانسانية ـ عند المؤرخ الامريكى الكبير ول ديورانت : انها نظام اجتماعى لانماش الثقافة " .

" وانها نظام سياسى تحميه العادات والتقاليد والقانون ..
وانها نظام اقتصادى يحمية استمرار الانتاج والاستهلاك والتوزيـع ..
وانها ابداع ثقافى عن طريق الحرية وتمهيد السبل للا صالـــه والتعبير وتشجيع الفكر والادب والتذوق والفن .. "

" وأن الحضارة الانسانية هى ذلك النسيج المعقد المتداخل الذى صنعه الانسان فى تعب .. ثم يحطمه بمنتهى السهولة !

والمؤرخ الامريكى ول ديورانت قد أطال النظر فى تاريخ الانسانية ـ أربعين سنة ـ .. فقد قرأ الادب والفن والطب والفلك والجغرافيا والحشرات والنبات والاديان .. ووضع على عينيه منظارا مثاليا أخلاقيا .. وهو المنظار الذى استراح اليه .. ومن كل الذى رآه ووعاه كتـــب

موسوعته الكبرى : قصة الحضارة ومن الخطوط العريضة وعلامات الطريق . ومعنى الطريق كتب هذا الدليل العام لكل سائح فى التاريخ .. وهذا الدليل هو "دروس التاريخ"

ويمضى ول ديورانت فى استعراض وجهات نظر جديدة فى تفسير التاريخ .

## * ثم ما هى علاقة التاريخ بالجنس أو العنصر ؟

هناك فى العالم أربعة آلاف مليون نسمة ملونة و٩٠٠ مليون نسمة بيضاء .. فالاغلبية الساحقة للملونين .. ومع ذلك نجد مثل هذه النظريات الخطرة كالتى ينادى بها الفيلسوف جوبينو فى القرن التاسع عشر . فهو يرى أن الجنس الابيض هو سيد الاجناس . وأن الرجل الارى هو صانع الحضارة .. وأن الانسانية لن تنقرض ما دامت تحتفظ بهذه الدماء الآرية النبيلة .

ويرى أيضا أن تشابه الظروف والبيئة لا يؤدى الى نفس النتيجة الحضارية . فالهنود فى شمال أمريكا عاشوا فى ظروف وبيئة متشابهة للتى عاش فيها الفراعنه . ومع ذلك لم تؤد هذه الظروف الى حضارة هندية .

كما أن النظم الواحدة لاتؤدى الى خلق حضارة واحدة • فالفراعنه عاشوا فى ظل نظم ملكية •• والافريق كانت لهم نظم " ديموقراطية " ••

ومن نتائج هذه النظرية أيضا أن الاحتفاظ بنقاء الجنس هو الذى أدى الى تفوق الامريكان والكنديين •• واختلاط الدماء هو الذى — أدى الى عدم تفوق الامريكان اللاتين الذين تزوجوا من السود ومن الهنود !

وابناء الاجناس المختلطة هم عادة الذين يتزعمون الدعوة الى المساواة بين الاجناس !

ونظرية أخرى سخيفة نادى بها المفكر الانجليزى المتحمس لالمانيا واسمه تشمبرلين • ولذلك ترك انجلترا واقام فى المانيا • فهو قد حصر نطاق التفوق لافى الجنس الآرى • ولكن فى فرع من الجنس الآرى : فى الالمان فقط • غير أن الالمان قد دفعهم الحياء الا يخالفوا هذا الضيف فى رأيه •• فمن رأى هذا الضيف الانجليزى أن الالمان سادة العالم •• وأن كل عباقرة التاريخ من أصل الماني •• حتى الشاعر الايطالى دانتى له ملامح المانية •• وحتى المسيح نفسه ليس آسيويا • فملامحة المانيه !

وكان الموسيقار فاجنر يؤيد هذه الدعوى !

أما فيلسوف النازية الفريد روزنبرج فقد اعتبر الدم الالمانى والارض الالمانية والعبقرية الالمانية " اسطورة القرن العشرين "

ولم يكن من الصعب على هتلر بعد ذلك أن يثير الشعب الالماني للقضاء على الشعوب الاخرى والتعالي عليها .

ويمكن الرد على هذه النظريات البغيضة بأن الشعب الصيني قد كان له ـ قبل الميلاد بزمن طويل عشرات الساسة والعلماء والاطباء والمخترعين والفلاسفة والقديسين ..

وكذلك المكسيك كانت لها حضارة المايا والازتيك والانكاس قبل أن يصل كولمبوس الى أمريكا ..

وكانت في الهند قبل المسيح بستة عشر قرنا آثار شامخة للفن والعمارة وكان لها علماء وفلاسفة أيضا .

ومصر الفرعونية دليل ساطع على الحضارة المزدهرة .

.. فالتاريخ ـ اذن ـ مصاب بعمى الالوان .. وفي استطاعته أن يلد الحضارة ويرعاها في أى مكان وفي أية ظروف وتحت أى جلد ..

فليس الآريون وحدهم هم أصحاب التفوق فى التاريخ .. ولا هـم أصحاب الذين احتكروا التفوق . فهناك حضارات سامية فى بابـل وآشور وسوريا وفلسطين وقرطاجنة ثم الحضارة الاسلامية .. فالمسلمون فى استطاعتهم أن يتباهوا بأنهم هم الذين قدموا الحكام والفنانين والفلاسفة والشعراء على مساحة واسعة من الارض من بغداد حـتى قرطبة .. فى الوقت الذى كانت فيه أوربا غارقة فى الظلم والظلام ..

واذا كان الزنوج فى أفريقيا بلا حضارة فسبب ذلك المناخ والظروف الاقتصادية القاسية .. ويجب الا ننسى أن عددا كبيرا من الزنـوج فى المائة سنة الماضية قد تفوقوا فى الفن والادب والرياضـة رغم ألوف الصعوبات..

ولا شك أن اختلاط الاجناس والالوان فى دولة كالولايات المتحـدة سوف يؤدى فى المستقبل الى ظهور جنس آخر مختلف .. ولـه ايضا لغة مختلفة تماما عن اللغة الانجليزية التى يتكلمها الانجليز والتى يتكلمها الامريكان أيضا وقد بدأت هذه اللغة الجديدة تظهر .

* * *

أما هذه الخلافات العنصرية فلا علاج لها الا بالتعليم القائم على اتساع الافق وبالعدل الاقتصادى . ودراسة التاريخ تعلمنا ان الحضارة ليست الا انتاجا مشتركا يساهم فيه كل الناس .. وأن الروح المتمدينة تتجلى فى معاملة كل رجل وكل امرأة ، مهما كان وضعهما ، على انه واحد فى هذه الاسرة التى يجب أن تتعاون وتبدع من أجل الخير والسلام !

* * *

* ماهى العلاقة بين التاريخ والدين ؟

لاغنى عن الدين فى أى عصر ولا فى أى مكان ولا فى أى شئ .. وأكثر الناس كفرا أو تشككا فى الدين لايستطيع أن ينكر أن الدين ضرورة حيوية واخلاقية وتربوية فى كل المجتمعات ، فى كل التاريخ .. وهو للتعساء راحة واكبر معين للمدرسين والمربين على تعليم الاجيال الجديدة أحسن السبل واسلمها فى الحياة ..

أو كما قال : نابليون : لولا الدين لذبح الفقراء الاغنياء ! ومادام الناس غير متساوين ، فان هذا يؤدى بالناس الى الفقر والقهر .. ولذلك لابد وأن تكون هناك قوة تعطى للناس الامل ,

والحيــــاة ..

والخوف من مظاهر الطبيعة عند الشعوب القديمة هو الذى جعلها تصنع الآلهه .. فهناك الخوف من القوى الخفية فى الارض والانهـــار والمحيطات والاشجار والغابات والسماء والرياح .. فجاء الدين ودفع الناس الى تقديم الذبائح والتراتيل والصلوات لكل هذه القوى المخيفة لعلها لا تضره .

ولم يصبح الدين قوة خطرة الا عندما جاء رجال الدين واستعملوا هذه المخاوف والطقوس لمساندة الاخلاقيات والقانون .. هنا فقـــط اصطدم الدين بالدولة . لان رجال الدين كانوا يلقنون الناس أن القيم الاخلاقية جاءت من عند الآلهة ..

وفى المتاحف صور للاله الفرعونى تحوت يعطى القوانين للملك مينا ..

والآله البابلى شمس يعطى القوانين للملك حامورابــــى .. وموسى تلقى الوصايا العشر و ٦١٣ حكمة من السماء .. والحسناء الخرافية ايجاريا أعطت القوانين لروما ..

وليست المسيحية وحدها هى التى تؤكد أن الحاكم قد اختارته السماء ، بل الديانات الوثنية أيضا .

ولذلك فقد شعرت الحكومات بالامتنان الشديد لرجال الديـن ، فاقتسمت معهم الارض والمال والناس.

وبعض الناس يشك فى قدرة الآديان على القضاء على الشرور الانسانية التى عمرها الوف السنين .. ولكن كان من المؤكد ان العالم سوف يصبح أسوا مما نراه الان لو لم يكن هناك دين . وقد حاولت الكنيسة الكاثوليكيــة فى أوربا أن تخفف من الاحقاد الدموية وحاولت الغاء السخرة وتجارة الرقيق وهى تؤكد أن الاخلاق أعلى من الدولة .

ولكن لم تلبث الكنيسة هى أيضا أن وقعت تحت سيطرة رجال لهم أطماع وفيهم ضعف . فعندما قويت فرنســا جعلت البابا أحد أدواتها السياسية .. ودخلت الكنيســة فى مرحلة طويلة من الهوان والضعف والخرافات .. ودخلت الكنيسة فى محاكم التفتيش وهى محاكم ابادة كل من يختلــف مع الكنيسة فى العقيدة وكل من يختلف مع الدولة فــى الرأى . وهذه المحاكم عار على الكنيسة وعلى الدولــه !

وعلى الرغم من أن الكنيسة كانت تنادى بالاخـــلاق فقد شاركت فى أشعال الحروب الدينية فى فرنسا فـــى القرن ١٦ وحروب الثلاثين عاما فى المانيا . وربما كـــان دورها المتواضع فى الغاء تجارة الرقيق . هو الشيء

الواضح الذى نذكره لها !

ولكن التاريخ يؤيد الكنيسة فى دعواها فى أن الناس فى حاجة الى دين غنى بالمعجزات والاسرار • وقد حدثت بعض التعديلات فى الطقوس والملابس•• ولكن الكنيسة ــ مهما بلغت قوتها ــ لا تجرؤ على تعديل مبادئ العقيدة التى تتنافى مع العقل أحيانا • فهذا التعديل يصدم مشاعر الناس التى ارتبطت بها آمالهم منذ وقت طويل•

وكل ماحدث هو ان " الاعياد الدينية أصبحت ( أجازات ) ـ اسبوعية !!

وعندما تواجه الانسانية محنة كبرى • ويشعر الناس بأن الحضارة الانسانية فى خطر فتنهار المدن ويهلك البشر • فأن هذا يؤدى الى التمسك بالدين •• وقد حدث مثل ذلك سنة ٤٧٦ عندما أصبحت ـ الكنيسة هى الامل الوحيد للناس !

والتاريخ يعلمنا أن الدين أى دين ــ له أكثر من عمر وأكثر من شهادة ميلاد • وان لديه قدرة على التجدد •• فكم من مرة أختفت ديانات ومعها آلهتها • ثم بعثت من جديد ••

فالملك اخناتون استخدم كل قوته كفرعون لمصر لتحطيم ديانة آمون •

ولكن بعد اختفاء أخناتون بسنة واحدة ، عادت ديانة آمون كما كانت !

وفي الهند في عصر بوذا كانت هناك موجات من الالحاد عنيفة .. وبوذا نفسه قد أنشأ دينا بغير آله . ولكن بعد وفاته أصبحت البوذية دينا للآلهه والقديسين والبار !

وجاءت الفلسفة والعلوم والتربية تجردت محايدة ا غريق من الالهه ،وهذه الفكرة استهوت بعض المفكرين فأقاموا جمعيات الحادية في فرنسا . واعلنوا أنهم لايعبدون الا العقـــل الذي مجده الفيلسوف فولتير .

وبعد ذلك بسنة واحدة خاف الزعيم روبسبير من الفوضى فأعلن ايمانه بالقوة المطلقة التي عبدها جان جاك روسو .. وأما نابليون فقد وقع اتفاقا مع البابا بيوس السابع لاعادة الكنيســة الكاثوليكية في فرنسا .. ونزعات الالحاد في بريطانيا في القرن ١٨ قد اختفت بتحالف العرش مع البابا ..

وهناك فترات في التاريخ تناوب بها : الدين والوثنيــة .. والدين يسود عادة عندما تحمل الاخلاق عبء الاصلاح الاجتماعي وتنتشر الوثنية والشك عندما تقوى الدولة وتعمل على اضعـــاف الكنيســة .. ومن الواضح في العصر الحديث أن الدولة تساعــد

على أضعاف القيم الدينية والاخلاقية .. وربما أدى هذا التحلل الاخلاقي الى رد فعل : فيظهر انتعاش ديني ويحرص الاباء على أن يبعثوا بأبنائهم الى الكنائس كما حدث في فرنسا بعد كوارث سنة ١٨٧٠ .

ولا يوجد نموذج واحد في التاريخ يحدثنا عن امكان قيام مجتمع اخلاقي بغير أن يكون هناك دين .

فقد انفصلت دول كثيرة عن الدين ولكن هذه الدول في حاجة دائمة الى قوة الدين للحفاظ على النظم الاجتماعية . وحتى الدول التي قضت على الدين نهائيا في حاجة دائما الى أن تخلق للناس دينا جديدا .. أى أنه لابد من أن يكون هناك دين دائما !

* * *

* اذن .. ماعلاقة التاريخ بالاشتراكية ؟

صراع الاشتراكية ضد الرأسمالية من الالحان المميزة في موسيقى التاريخ .. واذا كانت الرأسمالية تدعى أنها قد عملت على تطوير المواصلات وادوات الانتاج وأثارت قضايا الحرية وعدالة التوزيع وانها قد كدست الاموال وسخرتها في الصناعة والزراعة وشجعت على

ثروات الجبال والانهار والبحار . وكانت الدولة هى التى تتولى توحيد الانتاج وتوزيع الخيرات على الشعب . وحين أستولت الدولة على الارض أعلنت أنها فعلت ذلك من أجل الفقراء .. وفى القرن ١١ أعلن الامبراطور وانج أنش أنــه ليس من حق الاغنياء أن يقتلوا الفقراء . ولم يفسد هذه التجربة الصينية الا كثرة الضرائب و التجنيد الزائد لمواجهة الغزو الخارجى و الروتين الحكومى ..

وأطول نظام اشتراكى عرفه التاريخ كان فى بيرو فى القرن ١٣ . فقد آمن أهل بيرو أن الارض هبة السماء لكل الناس . وكل مواطن هو موظف فى الدولة . وكل فلاح هو مزارع فى أرض الدولة . وظل هذا النظام قائم حتى الغزو الاسبانى سنة ١٥٣٣ .

وكانت هناك مستعمرة اشتراكية يديرها ١٥٠ من رجال الدين اليسوعيين على الضفة الأخرى لنهر أرجواى ، فيما بين سنتى ( ١٦٢٠ ـ ١٧٥٠ ) فقد كانت الارض وثرواتها لكل الناس وكان عددهم ٢٠٠ ألف من المواطنين . وكانت ساعات العمل محددة أيضا .

وفى ظل التمرد الاشتراكي الذى صاحب البروتستانتية فى المانيا ارتفعت شعارات شيوعية مأخوذه من الكتاب المقدس. وارتفعت نداءات تطالب بالقضاء على الملوك والامراء وانشاء مجتمع نظيف يملك فيه الناس كل شيء .. وقد دعا القس توماس مينسر الى تشكيل جيش من الفلاحين وقاموا بمعركة ضد الدولة فمات منهم خمسة آلاف . أما القس نفسه فقد أعدم سنة ١٥٢٥ . ومن بعده جاء رجل اخر طبق الشيوعية على مدينة أوسترليتس لمدة قرن! هذا الرجل اسمه هانس هوت ( ١٩٣٠ ـ ١٦٢٢ ) .. أما يوهان لايدن فقد استولى على مدينة مينسنتر عاصمة وستفاليا لمدة ١٤ شهرا واقام بها نظاما شيوعيا كاملا ( ١٥٣٤ـ١٥٣٥ )

ولم تتكشف قسوة المجتمع الرأسمالى الا بعد الثورة الصناعيه: تشغيل الاطفال والمرأة وساعات العمل وانحطاط الاجور وكثرة الامراض فى المصانع وسوء التغذية والتهوية ..

وجاء كارل ماركس وزميله انجلز وأعطيا للشيوعية عقلها وقسوة اندفاعها فى " البيان الشيوعى " المشهور سنة ١٨٤٧ . أما كتاب ماركس المشهور " رأس المال " فقد كان انجيلها . وكان الاثنان يتوقعان قيام الشيوعية فى انجلترا بسبب التطور الصناعى الذى وصل الى مرحلة التركيز الادارى الذى يقتضى تدخل الدولة . ولم يطل

عمر الرجلين لكي يريا المفاجأة : فقد دابقت الشيوعية في روسيا فلماذا روسيا مع أن الرأسمالية في روسيا لم تكن سوى طفـــل رضيع ؟ ان السبب الحقيقي هو ان الفلاحين الروس قـــــد عاشوا قرونا طويلة من الفقر وأن عددا كبيرا من المفكرين قد مهد للثورة • ولكن الفلاحين تحرروا من السخرة سنة ١٨٦١ أما المثقفون فقد اتجهوا الى فوضوية تنادى بعدم استيلاء الدولة على كل شيء •• اما انتصار الثورة الروسية سنة ١٩١٧ فقد جاء نتيجة هزيمة عسكرية للحكومة القيصرية ونتيجة لسوء الادارة وبسبب عودة الفازحين من ميدان القتال محملين بالسلاح ، ولان الحكومة الالمانية قد وفرت الاقامة والسفر لكل من لينيـــــن وتروتســـكى !

واتخذت الدولة الجديدة شكلا جديدا فقد كانت تواجه فوضى داخلية وغزوا خارجيا • وكان الشعب محاصرا فاستبعدت الدولة الحرية الفردية الى أن يتحقق النظام والامن للجميع • وواجهت الموقف بنوع من " اقتصاد الحرب " وعاشت الدولـــة بسبب الخوف المستمر من الحرب • ولا احد يعرف كيف يكون شكل الدولة • أو الدول ، اذا قدر لها أن تعيش فـــــى

سلام طويل .

وقد عادت الاشتراكية الروسية الى استخدام الحافز الفردى لتعطى لاقتصادها دفعة الى الامام ولشعبها مزيدا من الحرية الجسمية والعقلية .

أما المجتمع الرأسمالى فقد اخذ يحد من الحرية الجسمية والعقلية للفرد .. انها تشريعات اشتراكية قديمة .. واعادة لتوزيع الثروات فى داخل دولة الرفاهية .

وكان كارل ماركس يرى أن الصراع بين الاشتراكية والرأسمالية سيؤدى الى " تركيب " جديد بين الاشتراكية والرأسمالية .. وهو مايحدث الآن بسبب التقارب المستمر بين الشرق والغرب.

ومن الواضح الآن ، وسنة بعد سنة ،أن نصيب الفرد ينقص . كما أن الدول الرأسمالية أخذت تضاعف الضرائب لتوفير الخدمات للمواطنين .

كما أن الخوف من الرأسمالية قد دفع الاشتراكية الى توسيع مجالات الحرية .

والخـــوف من الاشتراكيـة قـد أرغـم الرأسماليـة على تذويب الفوارق بين الطبقات .

فالشـرق يتجه الى الغـــرب ، والغــــرب يتجه الى الشـرق .. وسـوف يلتقيـان !!

## الفصل الثالـــث

## لوتعلمـــــنا من التـــــــاريخ ..

مالذى نتعلمة من دراسة وكتابة التاريخ ..

هذا هو السوءال الذى أجاب عنه المؤرخ الامريكى الكبيــر ويل ديورانت فى عشرة مجلدات أسمها " قصة الحضارة " استغرقت منه أربعين سنة من عمره وعمر زوجته . وبعد أن وضـع آخر نقطة فى مجلدات هذه القصة توقف ليتساءل : مامعنى هذا كله .. مامعنى الحضارة ؟ ما فائدة البحث عن المعنى ؟

هل الحضارة هى انتصارات الانسان المستمرة على البيئـــة .. هل هى انتصار الانسان على نفسه ؟

هل صحيح أن الحضارة هى : البارود والمطبعة والبرلمان ؟

هل هى صراع الانسان من أجل لقمة عيش أفضل، فى ظل أكثر ؟

هل يمكن شراوءها بالفلوس .. أم أن الحضارة هى التى تصنــــع الفلوس ؟

هل من دموع المسيح وسخرية فولتير ولدت الحضارة الاوروبية ٠٠ أم أن هذه الحضارة قد جاءت على كتف أحد القواد العرب فاتحا في الاندلس ؟

هل تاريخ الحضارة هو جريدة ووسيلة تهتدى بها واليها الشعوب نحو مستقبل أفضل ٠٠ هل التاريخ الانساني وهل هذه الحضارة المعاصرة كارثة حلت بالانسان يجب أن ينجو منها بسرعة قبل أن تتهدم فوق دماغه ٠٠ بسبب مايدور في دماغة من نزعات شريرة أجرامية ؟

أن المؤرخ الأمريكي ويل ديورانت قد قرأ كف التاريخ ، وضرب له الودع وفرش له الرمل ورصد له النجم ، وحصد مازرع غيره وخرج بالمعنى الذى ارتاح اليه في كتاب له أسمه " دروس التاريخ " ٠٠

وكأن المؤرخ الكبير يطلب من القارئ أن ينظر اليه بشئ من الصبر والرحمة فيقول : صفق لي اذا تقدمت ارحمني اذا سقطت ، شجعني اذا نهضت ٠٠ ولكن اعطني فرصه

أرجوك .. ودعني أقول كلمتي وأمشي في حالي ..

ويمشي المؤرخ الكبير في حاله ليتساءل كما هي عادته ..

* * *

## ماالعلاقة بين التاريخ والحرب ؟

كانت الحرب عنصرا ثابتا في التاريخ كله .. ولم تغير الديمقراطية من أسباب الحرب ولا من شكلها .. ففي الـ ٣٤٢١ عاما الماضية لم تخمد نيران الحرب الا ٢٨٦ سنة .. فقط !

فالحرب أعلى واغلى درجة من درجات المنافسة والاختيار الطبيعي بين أفراد وجماعات الجنس البشرى . فالحرب هى أب لكل شيء ـ كما يقول فيلسوف اليونان هرقليطس . وهي ينبوع لكل شيء : الافكار والمنافسة والقوانين والحكومات ـ كما يقول غيره !

والسلام هو توازن غير مستقر لايتحقق الا عن طريق قوى متكافئة أو سيادة مطلقة ..

وأسباب الحرب هى نفسها أسباب المنافسة بين الافراد : الرغبة فى مزيد من الكسب والقتال والكبرياء والطعام والوقود والسيادة ..

والدولة - كل دولة - عندها نفس الغرائز التى عندنا ولكن بلا ضبط للنفس .. لان الدول لايحكمها قيد فهى قوية . ولا توجد قوة أعلى منها تعاقبها .. أما الفرد فيخضع للقوانين والاخلاق . وهو يتقبل المفاوضة والحوار بدلا من القتال لان الدولة تحمية وتحمى ممتلكاته وحريته ..

والكبرياء عند الفرد تشعل رغبته فى التنافس ..

والوطنية فى الدولة تضيف المزيد من الحيوية فى العلاقات الدبلوماسية وفى الحرب ..

فأوربا عندما تحررت من سيطرة البابا وحمايته ، اشعلت كل دولة منها روح الوطنية ليتأجج الحماس فى جيوشها وأساطيلها .. وعندما تتوقع الدولة خلافا بينها وبين دولة أخرى فانها تطلق مدخراتها من الكراهية لهذه الدولة وترفع شعارات جديدة تجعل الكراهية دينا ، وفى نفس الوقت تؤكد حبها للسلام !

وبدلا من تعبئة الكراهية العامة ، لجأت الشعوب الى تعبئة أخرى عن طريق الخوف والرعب .. ولم يحدث هذا الا في الصراعات الاولية والا في الحروب الدينية .. في القرن ال ١٦ وحروب الثورة الفرنسية في القرن ال ١٨ .. وفي ذلك الوقت كانت الشعوب الاوربية غارقة في احترامها بعضها لبعض .. فالانجليز كانوا يسافرون الى فرنسا في أمان ، بينما كانت فرنسا في حرب مع انجلترا .. والفرنسيون كانوا يحترمون الامبراطور فردريش الاكبر .

وكان هو يجاهر بأعجابه الشديد بالفرنسين .. بينما كان الفرنسيون والالمان في حرب السنوات السبع .

ففي القرنين ال ١٧ ، ١٨ كانت الحروب مشكلة تعانيها الطبقة الارستقراطية لا الشعوب .. أما في القرن ال ٢٠ بعد أن تحسنت وسائل المواصلات ووسائل النقل وتطورت الاسلحة واجهزة الاعلام ، أصبحت الحرب صراعا دمويا بين الشعوب بين المدنيين والعسكريين .. وأصبح الانتصار في الحرب هو الدمار الشامل للناس وما يملكه الناس وأصبح قضاء على الحياه

نفسها .. ومما يخفف ويلات الناس ويصبرهم على بلواهـم ان الحرب قد طورت التكنولوجيا وأساليب الدمار ..

وفى التاريخ من أوله لآخره ، كانت
الحرب هى الفاصل النهائى لكل
الخلافات بين الشعوب .

ولولا انتصار القائد شارل مارتل سنة ٧٣٢ لاصبحت فرنسا كلها دولة أسلامية .. ولا أحد يعرف مالذى كان يحدث للحضارة العربية لو فشلت فى صد قوات المغول والتتار ..

وقد ينزعج بعض الناس على الشباب الذين يموتون فى ميادين القتال ، ولكن ضحايا السيارات أكثر من ضحايا الحرب .

ويمكن أن يقال أيضا أن السلام الطويل
فى العالم يودى الى ترهل فى عضلات
الشعوب .

وما تقوله الوصايا العشر المشهوره يصبح كلاما لا معنى لـــه عندما يشعر بالخطر الذى يهدد حياته وحياة أعز الناس عليه ..

والذى ينظر الى العالم اليوم يجد ان هناك قوتان عظيمتان : الولايات المتحدة . والاتحاد السوفيتى ..

ويقال أن الولايات المتحدة تقوم الآن بنفس المهمة التى قامـــت بها بريطانيا فى القرن ١٩ : وهى حماية الحضارة الغربية .

والاتحاد السوفيتى قد اتخذ شعارا هو تحرير الدول الاخرى ، والاخذ بيد الشعوب النامية . وهذه الشعوب قد بهرها ـ ولا شك ـ التطور الصناعى العظيم فى روسيا . وهذه الشعوب النامية تحلم هى أيضا بثورة صناعية جديدة ورخاء اقتصادى وقوة عسكرية .

وربما كانت الدول الرأسمالية أكثر انتاجا ، ولكن من المؤكـــد أنها أقل تطورا . ولذلك فالحكام الحريصون على السيادة علـــى موارد البلاد وطاقاتها الانسانية ، هدف دائم للدعاية السوفيتية واذا لم تتوقف هذه العملية فان الشيوعية سوف تنتشر وتحاصـــر أمريكا فى كل مكان : كما هو حادث فى آسيا وافريقيا وامريكـــا

اللاتينية ٠ أما استراليا ونيوزيلندا وأوروبا الغربية فسوف يحيط بها المعسكر الاشتراكى ٠ ويكفى أن ننظر الى اليابان والفلبين والهند ، والى قوة الحزب الشيوعى الايطالى وكيف أن انتصاره يؤثر على الحزب الشيوعى الفرنسى ٠٠ أنها مسألة وقت فقط أن تصبح بريطانيا والدول الاسكندنافية وهولندا والمانيا الغربية تحت رحمة القارة الشيوعية ٠

ولهذا السبب تجد ان امريكا تتصرف كدولة محاصرة وتقتبس أساليب اعدائها فى الحياة ٠ ولذلك ترى أيضا أنه من الاوفق لها أن تحارب عدوها بعيدا عن ارضها ٠ وتفضل أن يموت آلوف الامريكان فى كل مكان على أن يموت الملايين على أرضها ٠٠

وقد يدور حوار بين الامريكان واعدائهم ٠٠ فيقول أمريكى مثلا : ولماذا لانتفق ٠٠ ولماذا لانتعايش بدلا من أن تكون هناك ألف هيروشيما أخرى ٠٠ لماذا لانتصافح ويحترم كل منا تراث الاخر وأسلوبه فى الحياة ٠٠ خصوصا اننا لانخاف على تجارتنا وصناعتنا منكم ٠٠ ؟

ويكون امره عليهم دايما : كيف يكون ذلك وانتم ترون أن ـ الحرب هي أسلوب الحياة .. وأن نظام العالم وتوازن قواه لا يتحقق بالذوق والرقة .. وأنه لابد من انتصار قوة واحدة فقط .. تملـــى أرادتها على بقية العالم .. كما فعلت روما قبل ذلك .. وأنتـــم تؤكدون دائما أن الانسان حيوان مقاتل مناضل .. وأنه يؤمن أن ـ البقاء للاصلح .. للاقوى .. ونحن الان قد بلغنا أقصى درجـــات التنافس .. وقد تدخل في صراع آخر بين الكواكب .. وحينئذ ستكون هناك حروب كونية ..

ولا يتفق الطرفان .. ويستمر التوتـــــــر ..

* * *

## هل نتقـــــدم ؟

## هل نتأخـــــر ؟

التاريخ ملىء بالحضارات المنهارة فهل معنى ذلك أن المـوت والذبول والخمول قانون تاريخى لنسـل الحضارات الانسانية ؟ هـــل توجد قاعدة ثابته لنمو وذبول الحضارة وبذلك يمكننا أن نتنبأ بنهايـة

حضارة من الحضارات ؟

أن الشاعر اللاتيني فرجيل كان يتنبأ بأن التاريخ سوف يعيد نفسه .. وسوف يحدث من جديد كل ماحدث قبل ذلك .. لان التاريخ سيكون قد استنفذ كل أشكال التغيير والتبديل ولهذا سوف يعود الى ما كان عليه قبل ذلك .. ويظهر الناس الذين ماتوا .. وترجع الحروب التى خمدت ..

أما الفيلسوف الالمانى نيتشة فقد أصابه الجنون من كثرة تكراره لفكرة أن التاريخ سوف يعيد نفسه ..

وأن هناك عود أبدى لكل شيء !

**والتاريخ لايعيد نفسه ولكن**

**تتكرر حوادثه في اطارات**

**عريضة وبارزة وكبيرة ..**

ومن المتوقع — دائما — أن يحدث في المستقبل ماحدث في الماضي : تظهر دول جديدة وتختفي دول قديمة ، وتبدأ حضارات جديدة وتنتقل من حياة البراري الى المزارع الى المصانع ثم تظهر الاختراعات والاكتشافات ، وتثور الاجيال الجديدة ضد القديمة •• وتتمرد ثم تعود الى السير على الخطوط ثم تخرج عن الخط وتثور ••و سوف تتحل الاخلاق بعد ذلك•

فالتاريخ عندما يعيد نفسه يختار نطاقا اوسع • لان الطبيعه الانسانية تتغير مع التراخي •• ولكن الانسان سوف يستجيب للظروف المتشابهه استجابة واحدة : أمام الجوع والخطر والجنس •

ولكن لايوجد مايؤكد أن المستقبل سوف

يعيد الماضي •• فكل سنة هي مغامرة

انسانية جديدة !

وقد حاول الفيلسوف سان سيمون ( ١٧٦٠ ـ ١٨٢٥ ) أن يضع التاريخ فى سلسلة ذهبية .. مرحلة اليقين ومرحلة الشك .. أو مرحلة عضوية ومرحلة نقدية . فالمرحلة الاولى يكون فيها كل شيء مؤكدا منظما محسوبا له هدف اجتماعي واضح .. وتليها مرحلة نقدية فردية .

والتاريخ يقدم رجلا ويؤخر رجلا .. يخطو بالمرحلة النقدية ويليها بالمرحلة اليقينية .. وهكذا الى الابد وفى المرحلة الاولى نجد أن كل المشاكل الاساسية ( الدينية والسياسية والاقتصادية والاخلاقية ) قد عثرت على حلول مؤقتة ثم يتحقق التقدم الاجتماعى عن طريق هذه الحلول المؤقتة . وتظهر من خلال التطبيق بعض العيوب .. هذه العيوب تتسع حتى تدخل فى عصر النقد والشك : المناقشة والاحتجاج والفردية واللامبالاة بالقضايا الكبرى .

ففى المرحلة الاولى يشغل الناس بالبناء . وفى الثانية يشغلهم الهدم .

ومن رأى سان سيمون من الاشتراكية سوف تبدأ بمرحلة من اليقين والمتيدة الموحدة والنظام والتعاون والاستقرار ..

أما الفيلسوف الالماني اشبنجلر ( ١٨٨٠ ـ ١٩٣٦ ) فهـــو يؤمن بأن التاريخ مجموعة من الحضارات . وكل واحدة لها فصــول السنة . ولكن لكل حضارة مرحلتان مرحلة تكون فيها متوحدة منسقة ولها شكل فنى .. ثم مرحلة تتحلل فيها وتتمزق وتنتهى على شكل فوضى فردية وارتيابية وفيها تشويش فنى .!!

واذا كان سان سيمون يتطلع الى المستقبل ، فان اشبنجلر يتوجه الى الماضى .. ولكن هناك اتفاق بين الاثنين فى أن الحضارة تنمو وتزدهر ثم تذبل وتضمحل ..

ولكن ليس من العدل أن نصــف الحضارات بصفات الكائنـات الحية كالانسان والحيوان والنبات .. فنقول نمت وذبلت .. وسكتــت وصرخت .. لانه من المؤكد أن الحضارة لا تموت .. فالحضارة الاغريقية أكثر انتعاشا مما كانت فى أى وقت .. ومؤلفات الادباء والفلاسفـــة الاغريق مطبوعة فى ملايين الكتب فى كل الدنيا .. فاطار الحضارة ـ الاغريقية فقط هو الذى اختفى .. ولكن الصورة الموجوده فـــى

داخل الاطار منشورة فى كل مكان .. رأجمن وأربح وأكثر انتشارا .
ولا تزال الحضارة الاغريقية حية فى ذاكرة كل الاجيال .

والشعوب تموت .. ولكن حضارتها لاتمـــوت
.. وانما تتناقلها الاجيال وتصبح تراثا للجميع ..

واذا نحن تساءلنا مرة أخرى : مادام النمو والذبـــول
صفتين من صفات الحضارة والانسان أيضا ، فهل يمكـــن
أن نقول أننا لانتقدم ولا نتأخر وانما نحن نذبل وننتعش
ثم نذبل؟ هل التاريخ قد توقف ..

من المؤكد أن شيئا لم يتوقف. ومن المؤكد أيضـــا
أن الذى لايتقدم يتأخـــر..

ومن المؤكد أن طبيعة الانسان لم تتغير فى كـــل
العصور . وأن التقدم العلمى ليس الا اسلوب جديدا للحصول
على غايات قديمة : الطعام والجنس والانتصار والقتال .

ولكن الشيء الوحيد الذى اكتشفناه أخيرا هو ان العلم
قادر على أن ينفع وأن يضر والقطار الذى نستخدمه

فى الانتقال يستخدمه المجرمون فى القتل والنهب ..

وكثيرا ماينظر الناس الطيبون الى العصور الماضية بحسرة على أنها عصور ذهبية .. فينظرون الى العصور الوسطى وعصر النهضة حيث الخرافة والفن ، ويرون أن أهلها كانوا أعقل واحكم .. ويقولون : اننا طورنا الادوات ولم نطور الغايات !

وآخرون يرون أننا أكثر علما من اجدادنا ، فأطفالنا يعرفون القمر والمريخ وسفن الفضاء .. ولكن هذه المعلومات الكثيرة هدت حيلنا وحطمت اعصابنا ، بينما كان أجدادنا وأجدادهم يعيشون فى راحة بال وهدوء حال ولايعرفون الا اخبار نراء الصغيرة وعواصمهم الهزيلة .. واذا كنا قد أقمنا المدن الكبرى ، فأن هذه المدن الكبرى بها أحياء قذرة تعيسة يسكنها العمال والفقراء !

واذا كان صحيحا اننا تجاوزنا مراحل التعصب الدينى فاننا دخلنا فى مراحل التعصب القومى والعقائد والعنصرى .. فهل اخلاقيات اليوم أفضل أو أسوا من اخلاقيات زمان ؟

مرة أخرى نتساءل : هل القوانين الان قد كفلت الحرية والامان

للمتزمتين اكثر من أى وقت مضى ؟ هل نحن اعطينا لانفسنا حرية أكثر مما يستوعبها ذكاؤنا وتديننا ؟ هل نحن نقترب من المرحلة الخطرة التى يلجأ فيها الاباء الى رجال الدين صارخين : انقذوا أولادنا من الانحلال والشك ؟

هل الفلسفة لم تتقدم كثيرا عما كانت عليه أيام المفكر الصينى كونفوشيوس ؟ هل المسرح الحديث لم يتقدم عن المسرح الاغريقى عند اسخيلوس ؟

وموسيقانا هل هى أفضل موسيقى فى الدنيا ؟ هل هى أعمق واجمل من موسيقى المنشدين العرب فى العصور الوسطى ؟ أن المؤرخ الانجليزى ادوارد لين يصف الموسيقين والعازفين فى القاهرة بقوله : لقد سحرتنى الاغانى المصرية أكثر من أية موسيقى استمعت اليها فى حياتى ؟

هل يمكن أن يقال أن فن المعمار المعاصر أحسن وأروع من معابد الاغريق والفراعنة !

واذا كان جوهر الحضارة هو الانتقال من الفوضى الى النظام فكيف تسمى الفن التشكيلى المعاصر فى اوربا وامريكا الان !

أذن •• ماهو هذا التقدم الذى أحـــــرزناه ؟

•• اذا كان التقدم معناه زيادة نصيب الفرد من الســعادة •

فنحن قد تأخرنا جــدا •

ولكن يمكن أن يقـــال أن التقـــــدم

هو زيادة تحكم الانسان فى البيئــــــة •

وهذا ينطبق على أحد الكائنات وأســــــــــى

المخلوقـــات •

وليس من حقنا أن نتطلب من التقــدم أن يكــون متواصلا

أو متقطعا •

ففى التاريخ ارتداد وانتكاس•• تماما كما أن هنـــــاك

فترات فشل ونجاح وغضب وراحة وتعب عند كل فرد ••

ويمكن أن نقول أيضا أنه كانت هناك دائما فى كل عصـــور

التاريخ شعوب تتقدم وشعوب تتخلف ـ كما يقال اليـــــوم

أن روسيا تزحف الى الامام وبريطانيا تتراجع الى الخلــف ••

ويمكن أن يتقدم شعب فى مجال ولا يتقدم فى مجال آ.. ر • فامريكا متقدمة فى التكنولوجيا ، ومتخلفة فى النحت وكل الفنون التشكيلية ••

ومن الملاحظ بصفة عامة أن الدول الشابه مثل أمريكا واستراليا تتفوق فى قدراتها العملية الابداعيه الطبيعية ، أكثر من النواحى الفنية والادبية والشعرية ـ أى نحت الكلمات والاجسام ـ •• ومن الواجب أن ندرك ان كل عصر يحتاج الى قدرات من نوع خاص للتحكم فى بيئته ••

وقد يقال أن الصحة والعلاج وتطور الدواء دليل على التقدم •• ودليل أيضا على التقدم أن أجدادنا كانوا أصح ، وأننا الان أكثر مرضا وهزالا • ولكن الحقيقة تؤكد أن البدائيين أضعف منا وأكثر استعدادا للمرض •• وأن زيادة واضحة فى •• المصريين تنشرها الصحف الاوربية والامريكية من حين لاخر •• وأن المؤتمر الذى عقده الحانوتية فى أوربا وامريكا علامة من علامات الخير • فقد شكا الحانوتية من .. أن تجارتهم لم

تعد مريحة •• ولاشك أن تعاسة الحانوتية هي سعادة لكـــل الناس !

* * *

ومادامت الحضارة لاتموت ، فأن الكثير من انجازاتها سوف تبقى تواجه المصاعب المعروفة في التاريخ •• وأهم هذه الانجازات هي : النار والنور والعجلات والادوات الحديثة واللغة والكتابـــة والفن والاغنية والزراعة والاسرة وحنان الابوين والنظم الاجتماعيـــة والقيم الاخلاقية والرحمـــة •• والتربية والتعليم لنقل عـادات الاسرة وتقاليد الجنس البشرى كله وهي جميعا عناصر الحاضارة • وقد بقيت رغم كل الاجيـــال ومن حضارة الى حضـــــارة • انها " الخلايا الضامة " لتاريخ الانسانية !

واذا كان التعليم هو ان ننقل الحضارة ونلقنها للاجيـــال ، فمن المؤكد اننا تقدمنا • والحضـارة لاتورث • وانما نتعلمهـــا ونعلمها • واذا انقطع الارسال التربوى لمدة قرنين ، ماتـــت الحضارة وتحولنا الـى وحوش • ولذلك فأعظم شيء حققـــه

الانسان فى العصر الحديث ، وانفق عليه الملايين هو : التربية والتعليم .. فقد ارتفع التعليم الى درجة ليس لها نظير فى التاريخ .

ويجب الا ننظر الى التعليم على أنه تكديس لمعلومات أو وسيلة للحصول على مؤهل ، ولكن على أنه نقل للتراث العقلى والاخلاقى والعلمى والفنى من أجل فهم احسن للحياة وسيطرة عليها وتذوقها .. والتراث الانسانى الآن أغنى واعمق من أى وقت .

ونحن نتقدم — ولا شك — لا لاننا أصح جسما وأكثر معرفة ، ولكن لان التراث الانسانى الذى لدينا اعمق واخصب ، ولاننا ولدنا على مستوى أعلى .. والمستوى هو : المعرفة والفن اللذين نقيم عليهما حياتنا .. والانسان يرتفع

بقدر مايتلقى من التراث الانســـانى ..

والتاريخ ليس الا ابداعا وتسجيلا للتراث الانسانـــى.. والتقدم هو الزيادة المســـتمرة فى التراث وصيانته ونقلـه واستخدامه.

والذين يدرسون التاريخ على انه مجرد انذار لحماقات الانسان يجعلون الماضى غرفـــة مظلمـــة من غرف الرعـــب ، ولكن التاريخ مدينـة سماوية وعالـــم رحـــب للعقـــــــل .. ففيها ألـوف القديســـين والساسة والمخترعين والعلمــــاء والشعراء والفنانين والموســـيقين والعشـــاق والفلاسفة .. وهـــم جميعا مايزالون احيـــاء يعلمون ويفكـــرون ..

وما أسعد الانسان الذى يجمـــع ماضـى الحضـــارة الانسانيـــة ويقدمه لاطفالـــه .. وما أســـعد ذلك الانسان الذى يظـــل حتى آخر نفس فى حياتـــه ، منتميا لهذا التراث الــــــذى لاينفد .. فالتراث الانسانى هو أمنا الحنـــون واعمـــــــارنا الباقيـــة !

* * *

وأخيرا ..

لقد كان كتاب " دروس التاريخ "

بعباراته المركزة جدا والغامضة أحيانا

الحكم النهائى للقاضى التاريخى ويل

ديورانت .. أما "حيثيات الحكم"

لقد جاءت فى عشرة الاف صفحة وعشرة

ملايين من الكلمات استغرقت منه ١٥ ألف

يوم لكتابتها ..

واذا كان ويل ديورانت قد حاول أن يقول

الحقيقة ، فهو كالشاهد فى المحكمة يقسم بالله

العظيم أن يقول الحق .. ولا شىء الا الحق ..

ولكنه لايستطيع أن يقول " كل الحق "

لان احدا لا يعرف كل الحق ..

فالله وحده هو الذى يعرف الحق وكل الحق ..

وانما نحن نرى جانبا من الحق بجانب من العين

والعقل والقلب !



• مطبعة الزكية نصر